**حرب غزة تفضح إمبريالية الغرب**

**د. سعيد توفيق**

لا يمكن للكاتب أن يتجاهل ما يجري في عالمه من أمور جسيمة مهما كانت همومه الفكرية الأخرى، من دون أن يدلي بموقفه منها وشهادته عليها؛ وإلا فإنه سيكون متعاليًا على عالمه وواقعه المعيش الذي ينبغي أن يكتب من أجله في النهاية. ولكني لا أحب تأمل الأحداث الجسام إلا بعد فترة مناسبة تسمح بالتأمل من دون اندفاعات عاطفية. في اليوم السابع من شهر أكتوبر 2023 شنت حركة حماس هجومًا على مواقع عسكرية ومدنية في دولة الاحتلال: إسرائيل. وكان الرد الإسرائيلي المتواصل أكثر عنفًا ووحشية؛ إذ تم استخدام آلة الحرب الجبارة في تدمير البنية التحتية لقطاع غزة بهدف الإبادة، لا لحماس وحدها، وإنما للشعب الفلسطيني نفسه الذي تقصفه الطائرات من دون تمييز، فيسقط قتلى من المدنيين بمن فيهم النساء والأطفال والرضَّع. بل إن آلة الحرب الإسرائيلية الوحشية قد استهدفت مؤخرًا المستشفيات، فضلًا عن سيارات الإسعاف، حتى بات المسعفون يهرعون إلى إسعاف زملائهم! بل إنها قد استهدفت أيضًا طواقم الصحفيين على الحدود اللبنانية، ومنهم صحفيون أجانب، وقد توفي بعضهم وأصيب آخرون؛ وقد بلغت هذه الوحشة مداها بقطع المياه والكهرباء والغذاء عن قطاع غزة. وكل هذا يعد جرائم ضد الإنسانية بمقتضى القانون الدولي الذي وضعه الغرب نفسه. وعلى الرغم من أن كل هذا يحدث على مرأى ومسمع من العالم الغربي، فقد وجدنا أن هذا العالم يردد عبر أجهزته الإعلامية رسائل مدعومة بشهادات ملفقة عن وحشية حماس لا وحشية إسرائيل التي تظل في نظره الضحية البريئة! وكل هذا يستدعي السؤال عن تفسير الذهنية التي تحكم هذا الغرب.

من الواضح أن هناك حالة من الازدواجية في الذهنية الغربي: الإعلام الغربي مشغول بهجوم حماس على المستوطنات والقواعد العسكري، ويركز بوجه خاص على الهجوم على المستوطنات التي يعيش فيها المدنيون؛ وهو يعمل على الترويج لمزاعم إسرائيل عن وحشية حماس التي وصفها وزير الدفاع الإسرائيلي بأنها جماعة من "حيوانات بشرية". بل إن هذا الإعلام يروج لكثير من الصور والفيديوهات الملفقة التي يُرَاد بها تصوير المقاومة الفلسطينية باعتبارها وحشية؛ وقد وصلتني مؤخرًا بعض هذه الصور والفيديوهات التي أرسلها بعض الإسرائيليين لأحد أصدقائي: أحد هذه الفيديوهات تصور فتاة جميلة يحيط بها بعض الشباب والصبية، وقد أتي شخص ما وجذبها من شعرها ثم سكب عليها البنزين وأشعل فيها النار، فراحت الفتاة تتلوى وتتمرغ على الرمال لتطفئ النار المشتعلة بجسدها؛ فأتي هذا الشخص الذي لا تظهر صورته ليسكب عليها مزيدًا من البنزين حتى التهمت النار جسدها تمامًا، وتركتها كتلة من لحم متفحم على عظام مكشوفة. تلك مشاهد شديدة البشاعة لا يمكن لمن يشاهدها سوى أن يتميز من الغيظ والحنق على من قام بهذا افعل البشع باعتباره يستحق القتل والإبادة. ويبدو أن هذا هو المقصود بالضبط من هذا النوع من الترويج الإعلامي الكاذب، وهو ما دفع مؤخرًا عجوزًا أمريكيًّا إلى طعن طفل فلسطيني صغير ست وعشرين طعنة مميتة وهو يردد أنتم المسلمين تستحقون القتل! ولا يمكنني- مثل كل عاقل لا تحكمه الكراهية المجانية والعنصرية الدينية- أن يقتنع بهذه المشاهد؛ لأن التلفيق في صناعتها واضح لكل عين خبيرة؛ ولأن هناك مشاهدَ وشهادات مضادة أذاعها التليفزيون الإسرائيلي نفسه، حيث شهد بعض الرهائن في المستوطنات بحسن معاملة رجال المقاومة لهم.

والواقع أن تزييف الإعلام الغربي للحقيقة قد بدأ في التراجع؛ لأن شعوب العالم بدأت في إدراك هذا التزييف لما يحدث على أرض الواقع: هذا ما تبدى في المظاهرات العارمة التي اندلعت في العراق والأردن واليمن ومصر والمغرب وتونس وسوريا وتركيا وإيران وماليزيا، بل في هولندا وفرنسا وإسبانيا ولندن وأمريكا نفسها؛ بل يتبدى أيضًا في مواقف الاستنكار الرسمي لممارسات الاحتلال في حصار شعب فلسطين التي جاءت مبكرة من سلطنة عُمان، ومن الخارجية النرويجية، بل من بعض الدول البعيدة تمامًا عن المشهد مثل كولومبيا التي بلغ موقفها إلى حد طرد السفير الإسرائيلي.

لم يسأل الإعلام الغربي نفسه عن أسباب هجوم المقاومة الفلسطينية على المستوطنات الإسرائيلية، ناسيًا أو بالأحرى متناسيًا أن هذه المستوطنات هي اعتداء على أرض محتلة، وأن صاحب الأرض يحق له الدفاع عن نفسه بكل السبل الممكنة؛ ناهيك عن أن اليهود ساكني تلك المستوطنات قد مارسوا كل أشكال الاعتداء على أصحاب الأرض بدءًا من استفزازهم بهتك مقدساتهم، خاصة في المسجد الأقصى، حيث يقومون بممارسة طقوسهم في الرقص في باحات المسجد وكأنه معبد يهودي، بل الاعتداء عليهم بالسحل والضرب والقتل، وكل هذا يجري في حماية قوات الاحتلال!

ومن المدهش أن اليهود لا يعتدون بالمسيحية التي يدين بها الغرب ويفضلون دخول المساجد لا الكنائس؛ لأن الكنائس في نظرهم وثنية لا تدين بإله واحد.. من المدهش أن الغرب هو من يدافع عن هؤلاء اليهود باعتبارهم أصحاب العهد القديم الذي يتأسس عليه العهد الجديد. ولذلك فإني أرى أن المسألة في أصولها مدفوعة بعصبيات دينية تحكم الذهنية الغربية: فالغرب يستخدم إسرائيل باعتبارها أداة لإقرار شرعيته وأصوله الدينية، ومن قبل ذلك شرعيته ومصالحه الإمبريالية لتبرير غزو العوالم المغايرة في الدين والعقيدة والهوية.

نعم هناك أصوات عاقلة في الغرب، بل في إسرائيل نفسها، تدرك حقيقة الأمور. ولا بد في هذا الصدد أن نشيد بموقف وزيرة خارجية النرويج التي دعت إلى الوقف الفوري للاعتداء على الشعب الفلسطيني؛ ولكني أحب أن أتوقف هنا عند شهادة ذلك الصحفي الإسرائيلي جدعون ليفي في جريدة هاآرتس، الذي رأى في نوع من النقد الذاتي أن الغطرسة الإسرائيلية هي أصل الأزمات التي يعاني منها شعب إسرائيل، إذ يقول: نحن الإسرائيليين مسموح لنا أن نفعل أي شيء، فنحمي المستوطنين الذين يذبحون الفلسطينيين، ونزور المقدسات الموجودة في أرض فلسطين، ونطلق النار على الأبرياء ونصادر أراضيهم ونقوم بتهجيرهم. ونحن نفعل كل ذلك ظانين أننا لن دفع ثمنًا ولن نُعاقب عليه.